النهر الجديد

قصة بقلم عبد الرحمن الكيالي

عرفت هذه المدينة المقدسة منذ الطفولة الأولى . كانت أمي تتردد عليها كل عام مرة أو مرتين ، لزيارة والدتها وشقيقيها ، وكنت أصحبها في هذه الزيارات ، وإني لأذكر فيما اذكر ، أن سور البلدة القـــديم ، كان يضم اكثر ما فيها من العمران ، وأن ما قام خارج السور من الدور والمنازل ، لم يكن من الكثرة في شيء ، وانما كان بيوتاً متفرقة هنا وهناك ، مبعثرة بين أشجار الزيتون القائمة من عهد الرومان ، وكانت أشجار الزيتـــون تسد الآفاق الاربعة من جميع الجهات ، فتبدو لعيني كبحر أخضر ضارب الى السواد تتكسر أمواجه على عتبات المدينة الوادعة في ظلال سورها الاثري الشامخ .

وإني لأذكر فيما أذكر أن نساء البلدة وأطفالهن ، كن يخرجن أيام الربيع الى النزهة بين صفوف الزيتون المنسجمة ، فيقضون أيام الجمـــع والآحاد على بساط الربيع المخملي ، يتجول بينهن باعة النقل واللوز والخس والبرتقال الى مابعيد العصر ، حتى اذاأخذت الشمس تنحدر وراء الهضبـــة الغربية ، وسطعت اشعتها على رؤوس المآذن فذهبتها ، وانعكست على قباب الكنائس النحاسية مؤذنة بقرب انتشار الظـــلام ، رأيت أفواج النساء في ملاآتهن البيضاء والسوداء ، ووراءهن أطفالهن الصغار ، ينحدرن عن هاتيك الهضاب المودعة للنور ، كقطعان الضأن والمعزى تتراكض وراءها الحملان والسخول . ثم تأخذ هذه الاسراب سبيلها متجهة صوب أبواب السور الرئيسية في صفوف متقاطرة ، ربمـــا حسبها الناظر اليها من علو بعيد خطوط النمل العائدة الى بيوتها من بيادر الحصاد ، موسقة بحبات القمح السمين .

لم تكن للناس في ذلك العهد متع شعبية سوى هذه النزهات الساذجة . وكان الفتيان يهتبلون هـذه الفرص السانحـــة ، فيشاركون النساء في اجتلاء مفاتن الربيع الخلابة ، ويلمسون زمراً عـــلى مرأى من الصبايا والآنسات طمعاً في لفت أنظارهن ، واثارة انتباههن واستحسانهن من بعيد ، وان الحياة لتفيض عليهم خفة ونشاطاً عظيمين ، وتنشر عليهم ألوانـــاً من البهجة والسرور ، تتحدث عنها الوجوه ، وتشير اليهـــا العيون ، وتظهر آثارها السعيدة واضحة على الشفاه بالبسمات والضحكات .

كنت أعد أيام الأسبوع في انتظار يوم الجمعة ، وكثيرا ما كنت أسأل أمي عما بقي له من الايام ، لعله أن يكون قريباً ، وربما غالطتها وغالطت نفسي في عدد الأيام ، زعما مني أني أقربه ، فاتخطى به مكانه يوماً أو يومين . وكان من نصيبي لصغر سني حينذاك أن احمل إبريق الماء الكبير الى المتنزه في بستان الزيتون القائم على ربوة مشرفة على واد شرقي المدينـــة ، وان كنت لأنوء بهذا الأبريق أحياناً وأنا مصعد به في المسالك الوعرة بين جدر الطريق ومنعطفاتها الصخرية ، فألقي به الى الارض وأعدو مسرعاً بعيداً عنه ، وتضطر والدتي المسكينة أن تأخذه بيدهـــا الأخرى ، مضيفة الى سلتها المملوءة بطعام الغداء حملا جديداً يقطع ساعديها ، فتسير متباطئة ، وتكره على الاستراحة على فترات متقطعة اثناء الطريق .

لم يكن ينغص علي الرحلة في تلك الأيام سوى هذا الابريق الفخاري المملوء بالماء . وكثيراً ما كنت احاول الخلاص منه ، وأتصنع العثور به على صخرة حيث يذهب هشيماً ، متجاهلا سوء العاقبة ، وما سأتعرض له من لوم والدتي وتعنيفها ، وناسياً أننا سنحتاج الى من يجاورنا من المتنزهات نستجديهن شربة الماء ، وكثيراً ما كنا نُرد عنه رداً جميلا او غير جميل ، فننصرف الى غيرهن بوجوه ذليلة حتى ننال جرعة تطفيء غلة العطش .

لقد كانت متعتنا سحرية حقاً لو لا هذا الابريق اللعين الذي كان يثقل كاهلي وتهتز تحته ساقاي الصغيرتان ، فأنقله من كتف الى كتف ، ثم آخذه بيدي الاثنتين ، وأحياناً كنت احتضنه احتضاناً . وكنت أنظر وأنـــا كذلك الى ذلك الوادي السحيق ، فلا ارى فيه قطرة ماء ، وأعجب له من واد بين جبلين عظيمين تحيط به الأديار والمعابـــد والمقابر المتناثرة في احتشاد عجيب من رفات أهل الأديان المختلفة التي عبرت هـــذه المدينة في عصورها الغابرة ، ثم لا تنبثق فيه قطرة ، ولا تسيل فيه صبابة تبل الظمأ ، فتمنيني وأمثالي من الاطفال عن هذه الأباريق المحطمة على جنبات الطريق .

وكان هذا الوادي ينحدر من شمال المدينة الغربي في اتساع ويسر ماراً باشجار الزيتون الكثيفة يشقها شطرتين ، ثم يضيق كلما انحرف نحـــو الجنوب الشرقي فيعمق ويتوعر حتى يصير في عرض خطوتين .

وكانت قرية طور زيتاء تطل على جانبه الشرقي من علو شاهق بكنائسها ومساجدها الأثرية ، فتمد ظلال ابراجها الماردة عليه منذ شرق الشمس حتى الضحى ناشرة افياءها الطويلة على الهضبة المقابلة .

ثم يلتوي الوادي متعرجاً ، فاذا هو بين مدينتين من مدن الأموات الزاخرة بعظام الذاهبين وانهـــم ليحسبون انهم على حفافيـــه اقرب الناس ارواحاً الى فراديس الجنان . وكثيراً ما كـــان يدفعني فضول الأطفال الى المخاطرة ، فانحـــدر مهرولاً الى قرارة الوادي العميق في نظري حينئذ علّي اصل الى غايته ، فاذا بي امام جنادل وصخور جامدة لا تعرف البلل الا من الندى او في زحمة الأمطار .

اقامت هذه الصورة في نفسي ربع قرن منطوية في عالم النسيان ، ولم يدر في خلدي يوماً ان ستتراءى لي مجلوة واضحة ، كأنما يعاد عرضها علي في شريط سينمائي جديد . فقد أحال ربع القرن هذا كل مـــا يحيط بأسوار المدينة المقدسة ، عمارات وطرقاً معبدة ، وأحياء نظيفة جميلة آهلة بالسكان وامتد فيها العمران شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً . فابتلع ما كان يكسو هضابها من المروج الزمردية الناضرة ، وغصت بكل ما تغص به المدن الحية الصاخبة في هذا العصر ، فاذا المدينة القديمة داخل السور تضؤل وتتصاغر في حياء واستخذاء ، واذا المدينة الجديدة تشرف على الجو ببنايها الشامخة ، وتزهى بشوارعها الرتيبة الفسيحة ومتاجرها الضخمة ، ومقاصفها الكبيرة وملاهيها العامرة ، وتمتد فتزدرد ما حولها من القرى الصغيرة ، وتتعاظم فلا يستطيع المرء زيارة صديقه الا في سيارة تقطع المسافات الطويلة بين الاحياء المزدحمة والقصور الضخمة الرائعة .

ثم تمزقت فلسطين كما يتمزق رغيف الخبز في ايدي نفر من الاطفال الجياع ، فلم يبق للعرب من حطام القدس الا ما تضمه الاسوار القديمة ، وما تنطوي عليه المقابر الشرقية من الاجداث وحجارتها الصماء ، وذلك الحي الصغير المتواضع من الاحياء العربية المعروف بواد الجوز ، والذي يقوم فيه مسكني الجديد فوق مخبز بلدي لاهل ذلك الحي ، فتخترقـــه

مدخنة المخبز ذاهبة صعداً فوق سطحه مجللة بالسواد من الدخان المتناثر .

نحن في منتصف كانون الثاني ، والوقت ضحى ، والشمس قد ارتفعت عن اشجار دير كاليّا الملتفة على اعلى رابية من روابي قرية الطور. كانت هذه الاشجار تقابل الغرفة الشرقية من المنزل ، وكنت افتح النافذة كل صباح اترقب طلوع الشمس من وراء تلك الاشجار الهرمة كأنها رؤوس مئات من عجائز الشياطين تجمعت في صعيد واحد ، ولم نكن ندري أفي فصل الصيف نحن ام في فصل الشتاء . فقد امسكت السماء عن المطر على الرغم من كل ما صعد اليها من صلوات استسقاء الشيوخ والقسيسين والرهبان . وكانت الحرارة لاذعة والرياح دافئة . ولبثت الارض والجبال والوديان جدباء قاحلة لم ينبت فيها عشب ولم تتفتح فيها زهرة .

واقبلت علي زوجي بوجه تصيح الدهشة في ملامحه ، وإن عينيها لتنطقان بأن معجزة قد حدثت على ظهر الارض ، وهي تشير الي وتستحثني على ان اتبعها الى المرآة . كانت المرآة داخل المصراع الايسر من خزانة الملابس ، وكانت النافذة مفتوحة ومصراع الخزانة مفتوحاً ايضاً ، ونظرت الى المرآة فبدت امامي مئذنة مسجد الطور وبرج دير المسكوبية يناطح السحاب ، وانكشفت لبصري صفحة الجبل عليها الحجارة المتناثرة كالجواهر المبعثرة تعكس انداؤها اشعة الشمس الفضية ، وجعلت افرك جفني واطيل التحديق في المرآة كأنني اكذب عيني ، ثم انفتلت وأطللت من النافذة فاذا ما أراه يصدق المرآة !

يا للعجب !!! ماذا ارى ؟ واية عجيبة هذه التي تذهل العقل وتحير الفكر! خيط فضي في عرض خطوتين يسير متدفقاً في قرارة الوادي حيث كنا نلهو ونرتع ايام الطفولة الاولى فلا نجد الا الحصى المتناثر نتراشق به ونملأ منه الجيوب . ونظرت فاذا الجدول يأخذ مجراه الطبيعي ، فيلتوي مسفلاً بين الجبلين ماراً بين بقايا الزيتون ونثار المقابر على السفحين .

واستحوذ علي الشك واعوزني اليقين .

ارتديت ملابسي بسرعة ، وهرعت يدفعني الشوق والعجب الى المنحدر ، فلمحت عن بعد اطفالاً يجتمعون ويتفرقون ، وفي ايديهم حجارة يقذفون بها من بعيد . وكنت اقترب من المنحدر ، فاشعر بأن انفاسي تكاد تختنق ، وكلما دنوت ضاق صدري وزكمتني روائح كريهة مزعجة ، وسددت منخري بيدي . وجعلت اتنفس بفمي ، ونظرت فاذا انا على جرف المجرى ، واذا هي اخلاط قذرة مائعة تضرب الوانها الى الصفرة الكدراء فتشمئز منها العين ، ويأخذ النفس منها دوار يشبه ما يسبق القيء ، فوليت مسرعاً ، حتى اذا صرت بمنأى من خبث الرائحة ، وقفت لاهثاً من شدة التعب ، واستوقفت بعض السابلة اسأله .

قال : انها يا اخي اقذار اليهود قد اخذت مجراها الينا في هذا الوادي فكانت هذا النهر الجديد .

وافقت مذعوراً كمن استقرت بغتة رصاصة في سويداء قلبه ، ثم صحا على الدماء تتفجر في صدره ، ورجعت الى زوجي منكس الرأس لاحدثها حديث الكبرياء الذبيح تنزف جراحها الذليلة من اعماق نفسي حقاً يا عزيزتي ان للقرن العشرين لعجائب ، وان من اعجبها لدي هذا النهر الجديد .

بيرزيت – الاردن عبد الرحمن رباح الكيالي

دار بيروت – للطباعة والنشر

بناية اللعازارية ، تلفون ٣٣٨٠ بيروت – لبنان

صدر حديثاً

١ – فن الشعر

الثمن ٢٧٥

تأليف

الدكتور احسان عباس

المحاضر في الادب العربي بكلية الخرطوم الجامعية

•

٢ – لسان العرب

الجزآن الخامس عشر والسادس عشر

•

٣ – رمسكي كورساكوف

الثمن ١٥٠

الكتاب الرابع من مجموعة اعلام الموسيقى

ترجمة الدكتور فؤاد أيوب